٢ — الصاحبي

ونحن في مقالنا هذا سنقف من ابن فارس موقف الحذر والارتياب وسنحاسبه ونشتد في حسابه ومؤاخذته ، لانهُ لبس ثوباً آخر يخالف ذلك الذي عرفناه وتكلمنا عنهُ في مقالنا السابق ،واضطرب وتناقض ووهنت حجتهُ ولم تساعده أدلته عند ما بحث في الكلام عن نشأة اللغة ، وسنلمس هذا الاضطراب بأيدينا حينما نراهُ ينقل آراء غيره في غير إمعان ولا تدقيق وإن أمعن ودقق فلحدٍّ محدود لا يخرجه من ربقة التقليد ولا ينفي عنهُ وثوقهُ بالآراء الفجة التي هي أحوج إلى البحث والتمحيص وأدعى إلى الشك والارتياب ، وسنراهُ — بعد أن كان في رسالته السابقة نبراساً لطلاب البحث والحقيقة ، وناقداً ينظر إلى مئات القرون التي لم تخلق بعد نظر من خبرها وعاش فيها — ينكص على عقبه ويقف عند نقطة معينة في بحثه ، مع انهُ الناقد الذي يأخذ بيدك إلى مواضع النقد ، ولا يتركك إلاَّ بعد ان تؤمن بأنهُ الرجل الذي يجب ان يكون لك الحجة على كل جامد ومتعنت

ابن فارس ونشأة اللغة

كنا يعلم ان اللغة هي تلك الاصوات التي نعبر بها عن أغراضنا والتي ترجع في الحقيقة إلى موهبة التقليد التي خلقها الله فينا لتكون أساساً لنشأتها ورقيها ، وكنا يعلم انها سارت وتسير على نظام جميع الكائنات الحية وأنها — ككل ظاهرة من ظواهر الإنسان — مرت في أدوار كثيرة وخضعت في هذه الأدوار لنواميس الحياة التي توجب النمو والتجدد ، وانها تبعت الانسان من مبدئهِ في ضعفه وقوته ورقيه ومدنيته كما تبعته بقية ظواهره من عادات وشرائع وآداب وعلوم . والإنسان بعد أن كان في حياته الاولى قليل الاجتماع قليل الحاجات ، أخذ يرتقي شيئاً فشيئاً حتى اتسعت علاقاته وكثرت كمالياته واضطر إلى الكشف والاختراع . ومن المسلم بهِ ان تتبعه في كل هذا لغته التي هي اساس عمرانه وحافظة آثاره ، وأن تكون في مبدئها مثله قليلة الاصول ساذجة الالفاظ والتراكيب . ولكن ابن فارس

أهمل كل هذا ولم يشأ إلاّ أن يقول بتوقيفها وبأنها وجدت كاملة النمو ، كأن سنن الله في خلقه لم تعرفها ولم تسيطر عليها ، وجاء لنا بأدلة لن تثبت يوماً ما أمام بحث او تمحيص

أدلته

يدلل ابن فارس على رأيه الذي عرفت بقوله : « والدليل على صحة ما نذهب اليه إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه ، ثم احتجاجهم بأشعارهم ، ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحاً لم يكن اولئك في الاحتجاج بهم بأولى منا في الاحتجاج لو اصطلحنا على لغة اليوم ولا فرق » . وكأنه لما رأى ضعف هذا الدليل وشام برق الحق يكسح ظلمة رأيه أراد أن يتخلص ويستدرك ويؤيد رأيه بأدلة اخرى عليها تقيله من عثرته او تنهض به من كبوته فقال: « ولعل ظاناً يظن ان اللغة التي دلنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد . وليس الامر كذا ، بل وقف الله جل وعز آدم عليه السلام على ما شاء ان يعلمه إياه مما احتاج الى علمه في زمانه ، وانتشر من ذلك ما شاء الله ، ثم علم بعد آدم عليه السلام من عرب الانبياء (؟) صلوات الله عليهم نبيًّا نبيًّا ما شاء ان يعلمه ، حتى انتهى الامر إلى نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، فآتاه الله جل وعز من ذلك ما لم يؤته احداً قبله ، تماماً على ما أحصنه من اللغة المتقدمة . ثم قر الأمر قراره فلا نعلم لغة من بعده حدثت » — إلى ان قال : « وخلة اخرى انه لم يبلغنا أن قوماً من العرب في زمان يقارب زماننا اجمعوا على تسمية شيء من الأشياء مصطلحين عليه ، فكنا نستدل بذلك على اصطلاح كان قبلهم

وقد كان في الصحابة رضي الله تعالى عنهم — وهم البلغاء والفصحاء — من النظر في العلوم الشريفة ما لا خفاء به . وما علمناهم اصطلحوا على اختراع لغة او احداث لفظة لم تتقدمهم ومعلوم ان حوادث العالم لا تنقضي إلا بانقضائه ولا تزول الا بزواله »

مناقشة رأيه

والآن بعد ان عرفت ما ذهب اليه ابن فارس وبعد أن عرفت كيف نشأت اللغة نريد ان نناقش رأيه لينضح لك ان الحق في جانبنا لا في جانبه ، لان اللغة لو كانت توقيفية — كما ظن — لاقتضى ذلك حصولها بلا اكتساب ولاقتضى ان تكون ثابتة البناء والدلالة ، غير قابلة لشيء من التغيير ، مع ان الواقع يخالف ذلك ، لأنا لا ننطق إلا بما نسمع ولا نتكلم بالعربية إلا لنشوئنا بين قوم يتكلمون بها ، ولو نشأ العرب الذين اتخذ

ابن فارس الاحتجاج بهم دليلاً على التوقيف في اليونان تكلموا باليونانية او في فرنسا تكلموا بالفرنسية

ولقد رأينا الذين قدر لهم النشوء بين الحيوانات العجم يحاكونها في كل شيء حتى في الصوت والمشي على اربع ، وأيضاً فاننا نعلم ان اللغة العربية من اقدم عصورها الى الآن عرضة للنحت والابدال والقلب والاستعارة ، وما كان يتكلم به العرب في صدر الاسلام يختلف بعض الشيء عما كان يتكلم به العرب في الجاهلية ، هذا مع اصطلاح علماء اللغة أنفسهم على ان اللغة العربية — باعتبارها الكائن الحي — تنمو وتتسع بالتوالد الذي نسميه اشتقاقاً ، وبالتجانس الذي نسميه تعريباً ، ولقد رأينا المبرد يعتمد على الاشتقاق ويؤيده ، كما رأينا سيبويه ينتصر للتعريب ويروجه ولم يشترط فيه سوى الاستعمال ، وان اشترط غيره كالجوهري لبس العباءة والعقال : اي مجيئها على الاوزان العربية المعروفة !

وفي هذا وفي ما نجده من اللغات المستحدثة التي لم تكن من قبل — كاللغات المتفرعة من اللاتينية والسنسكريتية — دليل على أن اللغة ليست توقيفية وانما هي اصطلاح واكتساب

مناقشة المرهم في أدلته

يريد ابن فارس ان يجعل اجماع العلماء على الاحتجاج بكلام العرب برهاناً يثبت به رأيه ويدحض بحجج مناظريه ، مع ان الامر بالعكس لأننا لم نحتج بكلامهم الا لأنه يسير على قواعد ثابتة اعتبرها رجال اللغة كرشد لهم فيما ابتدعوا او استحدثوا من لغة ، وهم لم يفعلوا ذلك الا لاعتقادهم ان هذه القواعد ثبتت عند العرب بالممارسة والتكرار والوقوف بالتدريب على سر التراكيب ، ولم تكن وحياً ولا الهاماً ، إذ لو كانت كذلك لطويت صحف رجال اللغة وجفت اقلامهم ولم يحدثوا في اللغة اي حدث !

ويريد ان يجعل عدم اجماع العلماء على تسمية شيء من الأشياء مصطلحين عليه في زمان يقارب زمنه — حتى يستدل به على اصطلاح كان قبلهم دليلاً يستند اليه مع انه دليل يردّه العقل والواقع

أمّا العقل ، فلأن اللغة — وهي ظاهرة من ظواهر الأمة — يجب ان تسير في نموها وتجددها سيراً خفيًا لا يشعر به إلا بعد انقضاء الزمن الطويل كما يشاهد في سير الآداب والشرائع والعادات ، وأمّا الواقع فيؤيده ما نعرف ويعرف ابن فارس من

ألفاظ كثيرة استحدثت بالاشتقاق والتعريب في الاسلام ودلت على معان جديدة اقتضتها الحضارة الاسلامية والشرع الجديد، وذلك كالمصطلحات الفقهية والشرعية والدينية واللغوية

المؤيدون لما ذهبنا اليه من الاثر:

يقول الامام ابن خلدون في اثناء كلامه عن الذوق وتفسيره: « فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل، ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم إعراباً وبلاغةً أمر طبيعي، ويقول كانت العرب تنطق بالطبع، وليس كذلك وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنها جبلة وطبع. وهذه الملكة كما تتقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه »

وقال السيوطي: « ودليل امكان الاصطلاح ان يتولى واحد او جمع وضع الألفاظ لمعانٍ ثم يفهموها لغيرهم بالاشارة كحال الوالدات مع اطفالهن »

وقال ابو اسحق الاسفرائي في اثناء بحثه في اصل اللغة: « ان ابتداء اللغة وقع بالاصطلاح والتسمة من الله »

عبارة من عبارات ابن فارس ثم عليه

وأريد أن اختم كلمتي بعبارة الشيخ ابن فارس التي جعلها خاتمة ادلته، فانها في الواقع تترجم عن شعور خفي يستتره الرجل ويبالغ في ستره وتدل على أن له مذهباً آخر في نشأة اللغة يباين مذهبه الذي عرفناه ولكنه لا يريد ان يظهره، وتلك العبارة هي: «ومعلوم ان حوادث العالم لا تنقضي الا بانقضائه ولا تزول الا بزواله». وسنتناول ذلك بالنقد والتحليل في مقالنا التالي خصوصاً وان في قوله من أدلته « فيما يختلفون فيه او يتفقون عليه » دليلاً يؤيد عبارته هذه، ويؤيد أن لغة العرب وُجِدَتْ بالوضع والاصطلاح. ولا ادري هل جميع اللغات نزلت من السماء نزولاً كما قال ابن فارس ام هي اللغة العربية وحدها خصها الله بشيء لم يكن لسواها؟!! ولو تتبعنا نموّها لوجدناها سارت وتسير كغيرها من بقية اللغات، وأن هذه الوثبة التي حدثت فيها بسبب الاسلام والتي اخرجتها من نموّها الطبيعي الى حالة اخرى تدلّ على ما ذهبنا اليه

عبد القادر عاشور